نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وجماليات النص الأدبي

عتيقة لطرش

المركز الجامعي – البويرة

توطئة

إن في التواصل مع التراث النقدي الإسلامي بمختلف مكوناته وتوجهاته، متعة لا تضاهيها سوى متعة البحث في كتاب الله تعالى وتدبر أحكامه، ونحن إذ نستدعي هذا التراث ونستحضره ونستقرئه، نسهم في كل مرة في إضاءة جانب من جوانبه الثرية والمتعددة. وتهدف هذه المداخلة إلى الوقوف على مؤلفين نفيسين هما: "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني (471 هـ)، اللذين صنفهما في القرن الخامس الهجري، فكيف اعتبر عبد القاهر الجرجاني اللغة مجموعة من العلاقات أو كما يقال الآن ? Un système de rapports وكيف يسهم علم النحو في التمييز بين أسلوبي شاعرين؟ كيف قرأ عبد القاهر سابقيه ومعاصريه من الشعراء؟ وكيف أنصف بعضهم ممن عاب شعرهم النقاد والنقاد البلاغيون؟ ما هي المعايير التي اعتمدها عبد القاهر الجرجاني في جماليات النص الأدبي.

شهد القرن الخامس (05) الهجري ضعف اللغة وإقبال الباحثين على دراسة قوانين النحو ولو يتجاوزوها إلى البحث في جماليات

الأساليب الأدبية. وكانت الكثير من القضايا النقدية قد أثيرت قبل عصر عبد القاهر مثل قضية اللفظ والمعنى والسرقات الأدبية وغيرها فاهتدى الرجل إلى ربط البلاغة بعلم معاني النحو في محاولة منه لتجاوز ثنائية اللفظ والمعنى والسرقات الأدبية لبناء تصور ناضج للشعر بصورة عامة، مستعينا في ذلك بما جاء في آي القرآن الكريم.

1–في مفهوم النظم :

النظم في اللغة هو التأليف. وضم الشيء إلى شيء آخر.. يقال نظمت اللؤلؤ أي: جمعته في السلك والتنظيم مثله ومنه: نظمت الشعر، والنظام بكسر النون: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ.

ومن المجاز نظم الكلام، وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام إذا لم تستقم طريقه.

فالمعنى اللغوي المشترك إذن هو ضم الشيء إلى لاشيء وتنسيقه على نسق واحد كحبات اللؤلؤ المنتظمة في السلك، وهذا المعنى هو ما ذهب إليه عبد القاهرة الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" فالنظم عنده هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض.

وقد كانت نظرية النظم أبرز وجوه إعجاز القرآن عند العلماء. وقد أدى الجدال الذي أثير حول مسألة إعجاز القرآن في القرن الرابع الهجري إلى تجديد الفكر البلاغي بمقابلته بين بلاغة العبارة وبلاغة النظم، كما كان (الجدال) سببا في ظهور طريقتين في البحث

البلاغي الأولى تعتمد تفكيك النص لعزل الأساليب البلاغية والثانية تعتمد وحدة النص لتبيين الالتحام و التناسق الموجود بين أجزائه، ولا يتصور أصحابه بلاغة خارج هذا الإطار.

كما أدى البحث في نظرية النظم إلى وضع علم المعاني وعلم البيان، واتخذها عبد القاهر الجرجاني أساسا بني عليه نظريته في الإعجاز ومنهجا لدراسته النقدية والبلاغية.

إذ يرى أن سر بلاغة الأسلوب يمكن في ما يتوخاه الشاعر أو الكاتب من التركيب النحوي للعبارة وهو ما أطلق عليه مصطلح النظم [1] الذي عني به: "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا يخل بشيء منها[2]".

ولا يتوقف علم معاني النحو على مجرد ترتيب الألفاظ ومعرفة الاسم والفعل والحرف وغيرها، بل أن يحسن استعمال كل منها بحسب الغرض الذي يرميه الشاعر أو الأديب وبحسب الموضوع: "بل ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤلم[3]".

ولذلك، كانت حال الشاعر كحال الناسخ أو الحائك الذي يعمد إلى ز "ضرب من التخيير والتدبير في أنفس الصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجة لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد (يهتد) أليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته

اغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو، ووجوهه التي علمت إنها محصول النظم".

وإذا كان السكاكي (تـ 626) قد قسم البلاغة العربية إلى علومها الثلاثة (علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع) فإن هذا التقسيم لم يكن واردا قبله، كما إن الاعتقاد بأن عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " يكون قد وضع أو أسس علم المعاني بالمعنى الوارد عند السكاكي خطا فادح، لأن ما قصده عبد القاهر الجرجاني هو علم معاني النحو، وكان هدفه بعث اللغة العربية من جديد بعد الخمول الذي مس الدراسات النحوية بعد اقتصار أصحابها على البعث في ظواهر قوانين النحو ومدلول الألفاظ المفردة والجمل المركبة، وعزوفهم عن البحث في الأسلوب وجمالياته، ثم إن الكتاب المذكور (دلائل الإعجاز يحتوي – بالإضافة إلى المباحث التي وضعها السكاكي في كتابه مفتاح العلوم وصنفها ضمن علم المعاني – على مباحث في علم البيان هي الاستعارة والكناية والمجاز والتمثيل .

أما تقسيم الجرجاني للمعاني فقد جاء في سياق حديثه عن السرقات وما يمكن أن يحتذي فيه شاعر حذو آخر في المعنى وغيره. وقد أورد للمعنى قسمين هما:

المعنى العقلي الصحيح والمعنى التخييلي، أما الأول فمجاله الشعر التعليمي والكتابة والخطابة ويصدر عن الحكماء وأكثره

منتزع من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة رضي الله عنهم ونقول عن السلف الذين شأنهم الصدق وقصدهم الحق، كما أن له أصلا في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء .

وهذا النوع من المعاني هو ما يتماشى والمنطق، ومما يسلم به العقل الإنساني فترى الناس يعلمون به لدينهم، ويستدل الجرجاني على ذلك بهذين البيتين لمحمد بن الربيع الموصلي :

الناس في صورة التشبيه أكفاء　　　أبوهم آدم والأم حواء

فإن لم يكن لهم في أصلهم شرف　　　يفاخرون به فالطين والماء

ومثل هذا النوع من المعاني لا حظ له من الشعر سوى أن لفظه جزل وعبارته سهلة ويعمل به الناس، أو كما قال عنه الجرجاني: "صريح معنى، ليس في جوهره وذاته نصيب، و إنما ما يلبسه من اللفظ ن ويكسوه من العبارة من كيفية التأدية، من الاختصار خلافه والكشف وضده" .

أما الثاني، فهو ما يعتد به الشاعر والكاتب، ومجاله الصور والأحاسيس وألوان التعابير المختلفة: "وهو الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق، وإن ما أثبته ثابت، وما نفاه منفي، مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريبا، لا يحاط به تقسيما وتبويبا، ثم إنه يأتي طبقات، ويأتي على درجات، فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق حتى أعطى شبها من الحق وغشي رونقا من الصدق باحتجاج يخيل وقياس يصنع ويعمل".

ويستدل الجرجاني على الضرب، بقول الشاعر:

الشيب كره وكره أن يفارقني   أعجب بشيء على البغضاء مودود

فكراهة الشيب حقيقة لا مراد لها، ولا يرغب في الشيب لأنه من مظاهر العجز و الشيخوخة، ولكن الراغب فيه يرى في ذلك ديمومة للحياة وبقاء له فيها، وهو المتخيل في هذا المعنى: "لأنه كما كانت العادة جارية بأن في زوال رؤية الإنسان للشيب زواله عن الدنيا و خروجه منها، وكان العيش محببا إلى النفوس، صارت محببة لما لا يبقى له حتى يبقى الشيب كأنها محبة للشيب".

و لم يذموا الشيب لبياضه أو للونه، لأن البياض قد يسرنا في مواطن أخرى كأنوار الربيع و أوراق النرجس، ولكنه دلالته على ذهاب بهجات الشخص وإدباره عن الحياة، و السواد مكروه في الغراب، لكن البياض محبوب في البازي لأنه من الطيور الجارحة العتيقة: "هذا ولو عدم البازي فضيلة إنه جارح وإنه من عتيق الطير لم يجد لبياضه الحسن الذي تراه لذلك قال البحتري:

وبياض البازي أصدق حسنا   إن تأملت من سواء الغراب،"

وهذا النوع من المعاني هو المعمول عليه في الكتابة والشعر، لأن الشاعر: "يجد فيه سبيلا إلى أن يبدع ويزيد، ويبدئ في اختراع الصور ويبدع، ويصادف مضطربا كيف شاء واسعا، ومدا من المعاني متتابعا، يكون كالمغترف من غدير، لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهي".

2- العرض والمعنى:

يرى عبد القادر الجرجاني أن التطابق بين معنيين من كل الجوانب، هو من الأمور الوهمية التي لا يمكن للعاقل أن يسلم بها، ذلك أن التطابق والتناسب قد يكون في المصوغات كاللباس والجوهر، لأنه يستدعي مواد بعينها تصاغ في قوالب لتخرج منها أشكال معينة، غير أن هذا لا ينطبق على الكلام: "لأنه لا سبيل إلى أن تجئ إلى معنى من بيت من الشعر أو فصل من النثر فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعته، بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من تلك لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور" .

ويدعم عبد القاهر الجرجاني رأيه هذا بآية من القرآن الكريم في قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب) سوة البقرة، الآية 179. وقول العرب في جاهليتها: "قتل البعض إحياء للجمع".

ونحن نتسائل: هل وضعت عبارة "قتل البعض" في موضع [ولكم في القصاص]؟ و هل وضعت عبارة "إحياء للجميع" في موضع [حياة] لا شك في أن ما بين آيات القرآن الكريم وبين عبارات البشر باعا كبيرا وبونا بعيدا. وقد يسأل السائل: ولماذا قتل البعض؟ عندئذ ستدرك ان هذا التفاوت بين الأسلوبين ـــ و إن ظن الناس أنهما يحملان معنى واحدا — هو مجرد مقاربة بينهما، واشترك في الغرض دون المعنى لأن قول الله تعالى [ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب]: "كلام فصيح لما فيه من الغرابة وهو أن القصاص

قتل وتفويت للحياة (...) وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل".

وإذا أريد للكلام أن يحمل معنى كلام آخر نفسه، فلا بد أن يلجأ إلى وضع مكان كل لفظة أخرى تحمل معناها نفسه في المعجم فيصبح ذلك استنساخا للكلام الأول كأن نأتي إلى بيت الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها　　　واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فنقول:

ذر المفاخر لا تذهب لمطلبها　　　واجلس فإنك أنت الآكل اللابس

لا شك في أننا نجد من جمال العبارة وحلاوة الأسلوب في بيت الحطيئة ما لا نجده في البيت الذي حاولنا إخراجه في صورة الأول، ولم تفعل شيئا سوى استبدال لفظة بلفظة، لذلك "غلطوا فأفحشوا ، لأنه لا يتصور أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين مثل صورة في الآخر البتة (...) فالذي يجيء فلا يغير من هذا الذي به كان كلاما أو شعراء، لا يكون قد أتى بكلام ثان وعبارة ثانية، بل لا يكون قد قال من عند نفسه شيئا البتة".

ويمكن أن نتصور هذا الفرق بين المعنى والغرض كالتالي:

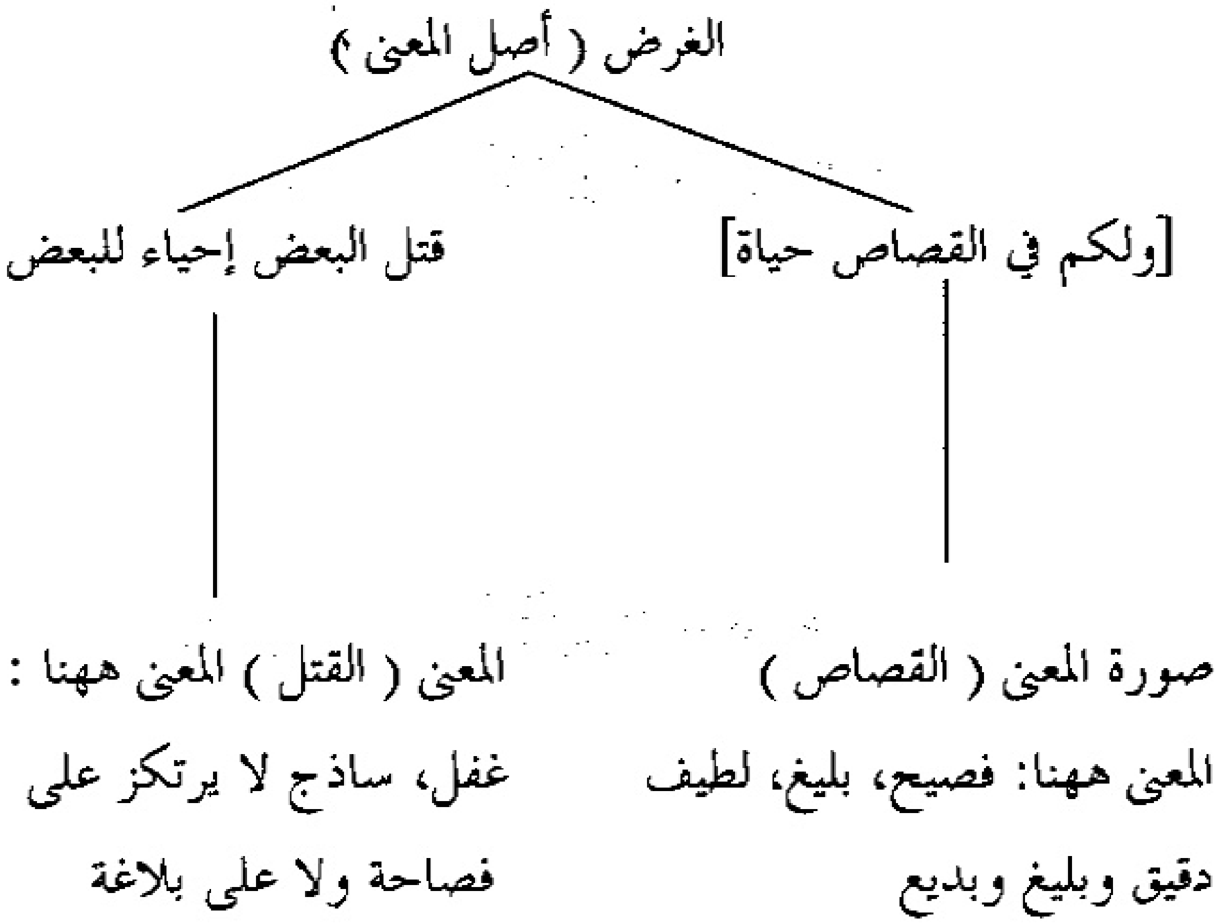

3- المعنى ومعنى المعنى:

يعرف عبد القاهر الجرجاني المعنى بأنه: "المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة" أما معنى المعنى فيعرفه بقوله: "إن تعقل من اللفظ معنى فيفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر" .

ففي المعنى، نصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، أما في معنى المعنى، فإننا لا نصل إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن

يدلنا اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية نصل بها إلى الغرض".

ويمكن بيان ذلك فيما يلي:

اللفظة العادية	**اللغة الشعرية**
اللفظ	اللفظ
الدلالة	الدلالة
الغرض / المعنى كقوله: خرج زيد زيد منطلق	المعنى
	الغرض / معنى الغرض كقولنا: نؤوم الضحى

ففي عبارتي خرج زيد وزيد منطلق، يفهم المعنى من ظاهر اللفظ بحدوث الخروج والانطلاق من هذين الغرضين، أما في العبارة الأخرى نؤوم الضحى، فإننا نحتاج إلى قرينة تبين سبب نوم هذه المرأة إلى ذلك الوقت المتأخر من النهار. فنعلم عند ذلك أنها مدللة لديها من يخدمها. وهذا المعنى الثاني الذي هو معنى الأول "نؤوم الضحى" دلنا عليه السياق الذي وجد في اللفظ واقترانه بالضحى (النوم / الضحى) لأن العادة تقضي أن ينهض عامة الناس مبكرين .

وهذا الذي يسميه عبد القاهر الجرجاني معنى المعنى هو ما كان من الاستعارة والكناية والتمثل مما يحتاج فيه إلى قرائن للوصول إلى الغرض المقصود.

4- في المصطلح النقدي البلاغي:

لم يسهب عبد القاهر الجرجاني في تعريف المصطلح النقدي البلاغي ولم يبوب ما أورده من مصطلحات نقدية مثلما عمد إلى ذلك الفخر الرازي الذي عاب طريقة عبد القاهر الجرجاني واستهجنها ليأتي السكاكي بعده ويقيد المصطلح البلاغي ويقننه، وكتابه مفتاح العلوم ومع كل ما تعر إليه من نقد واستهجان من أنه أزهق روح البلاغة العربية وخلع عنها رونقها ـــ يبقى هذا الكتاب ـــ (مفتاح العلوم) دليل الدارسين والباحثين في المصطلح ودقته.

أما عبد القاهر الجرجاني، فقد ركز على مزايا المصطلح وبين فضائله جماله. أما أهم تقسيماته فقد خصت الاستعارة بنوعيها المعروفين والمعمول بها إلى وقتنا هذا وهما: الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية، كما قسم المجاز اللغوي الذي يقوم على المبالغة والمشابهة وهو الاستعارة. ويضيق بنا المجال ههنا لذكر كل ما جاء من مصطلحات في هذين الكتابين لعبد القاهر الجرجاني، لهذا ارتأينا أن نتحدث عن بعض منها وحصرناها في الاستعارة والتشبيه.

أ- الاستعارة:

يقول فيها عبد القاهر: "فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعز منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، إن شئت إعارتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون".

وقد قسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة.

الملاحظ في دراسة الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني أنه لا يخالف سابقيه في قاعة من قواعد عمود الشهر القائلة بوجوب مناسبة المستعار منه للمستعار له، فهو وإن لم يبد تعصبا كبيرا لشعر أبي تمام، إلا أنه يلتمس العذر بأن يبين من خلال نماذج عديدة أن الاستعارة مستحسنة ههنا ومقبولة هناك وتقع بين الحسن والقبول في مثال آخر فيبدأ بقول أبي تمام وقد ذكر لفظة الجسر:

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته ... القول ما لم يكن جسرا له العقل

وقول أبي تمام أيضا:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب

"فترى في الثاني حسنا لا تراه في الأول، ثم تنظر إليها في قول ربيعة الرقي:

قولي نعم ونعم إن قلت واجبة   قالت عسى وعسى جسر إلى نعم

فترى لها لطفا وخلابة وحسنا فيه الفضل بقليل" وحجة عبد القاهر ودليل هو أنه: "من سر هذا الباب أنك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت في عدة مواضع ثم ترى لها في بعض ذلك ملاحة لا تجدها في الباقي، إذن يبقى السياق الذي ترد فيه اللفظة المستعارة، هو الذي يحدد تفاوت جودها.

ومن الاستعارة غير المفيد، يورد عبد القاهر هذه الأبيات:

فما رقد الولدان حتى رأيته   على البكر يمريه بساق وحافر

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا   بهذا المحيا من مجيء زائر

ولكنه يعود لربط هذين البيتين بما ورد قبلهما :

وأشعرت مسترخ العلابي طوحت   به الأرض من باد عريض وحاضر

فأبصر ناري وهي شقراء أوقت   بعلياء نشز لليـــون النواظـــر

لم يستحسن البلاغيون قبل عبد القاهر الجرجاني هذه الأبيات غير أن الجرجاني يعطيها بعدا إنسانيا ذلك لأن الشاعر ضيفا طارقا أسرع إليه وهو يحث بعيره بكره الفتي بساقه وقدمه، فصح له أن يذكر الحافر بدل القدم .

وقد أخذت هذه الاستعارة بعدا فنيا وإنسانيا عند عبد القاهر الجرجاني لأن الشاعر لم يقصد الزراية بضيفه بل أحسن القول فيه بوصفه على تلك الحال من الشعث والتعب، يدلنا على

ذلك ما جاء في الأبيات الثلاثة الأخيرة: "فكان قصده أن يصفه بسوء الحال في مسيره، وتقاذف نواحي الأرض به، وأن يبالغ في ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره، واستفراغ مجهوده في نفسه".

ب- التشبيه:

إذا كانت القاعدة في عمود الشعر تقول بوجوب المقاربة في التشبيه، فإن هذا الفن البلاغي لم يثر الجدل الذي أثارته الاستعارة عند البلاغيين. ولكنهم رغم ذلك، بقوا يستحسنون تشبيهات القدامى من الشعراء، واستحوذ على عقولهم قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والشحف البالي

وقد شبه ما يحتويه عش العقاب من قلوب الطير التي تصطادها بالعناب بالتمر الجاف الأول رطب طري، والثاني جاف يابس.

وقد فتن بشار بهذا البيت حتى قال:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وكان تعليق بعض البلاغين على بيتي بشار وإمرئ القيس أنه شبه ظلمة الليل بمثار النقع، والسيوف بالكواكب، غير أن بيت امرء القيس أجود، لأن قلوب الطير رطبا ويابسا أشبه بالعناب والحشف من السيوف بالكواكب.

بيد أن عبد القاهر الجرجاني يدعونا إلى النظر إلى بيت بشار من أكثر من زاوية واحدة. ذلك أن احتدام الحرب يقتضي اختلاف الأيادي في الضرب واضطرابها، وكثرة الحركات تستدعي اعوجاج السيوف واستقامتها تارة، وارتفاعها وانخفاضها تارة أخرى، وتتلاقى السيوف وتتداخل ويقع بعضها في بعض والسر في جمال هذا التشبيه، هو قوله: تهاوى، لأن الكواكب لو سقطت اختلفت جهات حركاتها، وتغير شكلها، فاستطالت وكأنها سيوف.

كما استحسن عبد القاهر الجرجاني تشبيهات ابن المعتز منها قوله:

ولازوردية تزهو بزرقتـــــها   بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها   أوائل النار في أطراف كبريت

وقد شبه البنفسج في زرقة أوراقه وحمرة ساقه بزرقة النار أول ما تشتعل بالكبريت، ومثل هذا النوع من التشبيه عند عبد القاهر: "أحق وأعجب (من غيره) وأحق بالولوع وأجدر (...) لأن مبنى الطباع وموضوع الجلبة على أن لاشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه خرج من موضع ليس بمعدن له، كانت صبابة النفوس به أكثر، وكان الشغف منها أجدر، فسواء في إثارة التعجب، وإخراجك إلى روعة المستغرب، وجودك الشيء في مكان ليس من أمكنته، وجود شيء لم يوجد ولو يعرف من أصله في ذاته وصفته".

وبهذا الرأي الأخير في تشبيه أبي المعتز، يكون عبد القاهر الجرجاني قد كسر جانبا من قاعدة المقاربة في التشبيه، ويكون قد أدرك ما لم يدركه سابقوه من النقاد البلاغين الذين كانوا ينظرون إلى هذه الفنون البلاغية منفصلة عن السياق الذي وردت فيه، بينما اعتبر عبد القاهر الجرجاني التركيب النحوي نظاما فنيا متكاملا وانطلق من الطاقات الكامنة في اللغة ليفتح المجال أمام القراءات الواسعة والمتاحة للنص الأبي، وهو القائل .

وقد علمنا بأن النظم ليس سوى حكم من النحو نمضي في توخيه

سبق كثير من النقاد واللغويين والبلاغيين عبد القاهر الجرجاني إلى ذكر النظم منهم: سيبوسه، أبو سعيد السيرافي، أبو الهلال العسكري، والجاحظ والباقلاني وقد أخذ عبد القاهر ما كتبه القاضي عبد الجبار في مؤلفاته كالمعنى في أبواب التوحيد والعدل، وقد هاجم بعض الدراسيين عبد القاهر منهم: د. بثينة أيوب و. د. أحمد محمود المصري في كتابهما قضايا بلاغية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط 2، الإسكندرية 2005.

الهوامش:

1-نفسه، ص 237.

2-دلائل الإعجاز، ص 64.

3-الزمخشري، الكشاف، ج 1، ص 221.

4- دلائل الإعجاز، ص 372.

5- نفسه، ص 373.

6-نفسه ص 203.

7- نفسه، ص 203.

8- نفسه ص 20.

9- أسرار البلاغة، ص 33.

10- دلائل الإعجاز، ص 62.

11- نفسه، ص 62.

12- نفسه، ص 69، 68.

13- نفسه ص 152.

14- نفسه، ص 110.